KWASU Journal of Humanities 2:4 (2022)

مقامات الإلوري والقضايا الاجتماعيّة: دراسة أدبيّة

جامع محمد يونس

A LITERARY STUDY OF SOCIAL THEMES IN MAQĀMĀT AL-ILŌRĪ

Jamiu Muhammad Yunus•

ملخص

من الفنون الأدبيّة التي غطاها الغبار الأدبي فنّ المقامات، فقد ركد عصورا وخمد وهجُه زمانا لا يلتفت الأدباء إليه، لا في الدول العربية ولا في الدول المستعربة، لكنّ الظروف تغيّرت وأصبح الفنّ يستعيد نشاطه وينفض الغبار عن نفسه وبدأ ينال إقبالا من الكتّاب والدارسين، خاصة في نيجيريا. عادت الروح إلى فنّ المقامات من جديد في نيجيريا وخصوصا على أيدي العلماء اليوربويين وهم به مولعون لأسباب قد تكون لرسوخ أقدامهم في اكتساب الملكة اللغوية من جانب، وحب قصّ الأخبار من جانب آخر. والهدف الذي تسعى هذه المقالة إلى تحقيقه هو التعرف على مدى مطابقة مضمون المقامات كفنّ أدبيّ للقضايا الاجتماعيّة، وذلك من خلال دراسة أدبيّة لمقامتين من مقامات الإلوري. وتتبنى هذه المقالة المنهجين الاستقرائي والوصفي للوصول إلى فاعلية المقامات كفنّ قصصي في الأدب النيجيري العربي، وتشتمل على مقدمة تتناول التعريف بفنّ المقامات وجولة قصيرة حول سيرها في الأدب العربي؛ والفصل الثاني يتحدّث عن المقامات في الأدب النيجيري العربي كقافلة لاجتماعية الأدب العربي في نيجيريا ؛ والفصل الثالث يعرض خلفية مؤجزة لكاتب مقامات الإلوري وعرض مقامتين مختارتين؛ والفصل الرابع يتناول الدراسة الأدبية للمقامتين؛ ثمّ الخاتمة التي تعرض النتائج والمقترحات.

Abstract:

Maqāmah is a prosimetric literary genre very popular in Arabic literature and well accepted among scholars of literature across the Islamic world. It is a genre alternating ryhmic prose (saj^{c}) and poetry as the narrative style in its presentation. The genre had been in deep and long hibernation until very recently, especially in Nigeria; the reason for its revival could be because maqāmah is a precursor to prosaic literary writing among Muslim scholars. The genre, among Arabs, used to be for demonstration of flowery ability to express literary contents; it is often short and ornamental but replete with moral themes. The genre is well embraced among Nigerian Muslim scholars of Yoruba extraction because it suites their folkloric heritage: the Yoruba culture of telling tales by moonlight to young children before dinner makes maqāmah very adaptive to their environment. The concern of this paper is to study the sociological themes in a collection of maqāmāt written by Muhammad Awwal bin Abdus-Salaam. Literature being a social document and prism through which society could be viewed in a very crystal manner; the study chose two maqāmahs for the purpose of discussing how the writer has succeeded in making his work a true reflection of his society. One of the maqāmahs discusses a national crisis that enveloped a state in the recent past where many lives were lost in Kaduna, with hoodlums hiding under religion to perpetuate the mayhem of catastrophic consequence. The other maqāmah has as its themes guidance and advice of Muslim scholars on how to get steady and sustainable means of income instead of hinging their survival on the society all in the name of being religion scholars. The paper concludes with a critique of literary styles of the writer to appraise its conformity with standard ways of writing maqāmahs.

مقدمة

المقامة لغة "... كلمة استعملت في القديم بمعنى مجلس القبيلة أي المقام وبمعنى القبيلة أيضا، والمقامة لغة من القيام". (الشريسي: 50) ويعرفها الأدباء بأنها "...شبه قصة قصيرة، تدور حول بطل وهمي يروي أخباره راوية وهمي أيضا؛ وبطلها رجل أحكم التحيّل وقصر همّه على تحصيل الطفيف من الرزق، فكانت أخباره كلها تدور

• Department of Arabic and French, Kwara State University, Malete. **Email**: yunusabasorun@yahoo.co.uk basorunyunusa@gmail.com yunusa.jamiu@kwasu.edu.ng

حول الكدية والخداع، والاحتيال والتمويه، لا تربطها وحدة موضوعية ولا تُحييها شخصية حقيقية. وهي ميدان لعرض النكتة وإظهار البراعة في التخلص من مآزق الحياة عن طرق ملتوية، وبنوع خاص لإظهار المقدرة اللغوية والأدبية." (الفاخوري: 731) وبعبارة أخرى، المقامة "...في الأدب العربي قصة قصيرة مسجوعة تتضمن عِظة أو مُلْحة أو نادرة، كان الأُدباء يَتَبَارون في كتابتها إظهارًا لما يمتازون به من براعة لغوية وأدبية". (مجدي: 379) يبدو من التعاريف السابقة أنّ المقامة أطلقت على المجلس والقبيلة وفي الأدب العربي في الجاهلية ما يؤيّد هذا كما أورد شوقي ضيف إذ قال: "ويقف الباحثون عند كلمة مقامات التي أطلقها البديع على قصصه ويتساءلون عن المعاني التي جاءت فيها قبله، وإن من يرجع إلى الشعر الجاهلي يجدها تستعمل فيه بمعنى المجالس، يقول زهير بن أبي سُلمى في بعض شعره:

وفيهم مقاماتٌ حسانٌ وجوهها وأنــديةٌ ينتابـها الـــقول والفعلُ

وإن جئتهم ألفيت حول بيوتهم مجالس قد يُشفَى بأحلامها الجهل"

(شوقي: 247)

وقد استقر المعنى على ذلك إلى أن جاء العصر العباسي وأصبحت المقامة نوعا أدبيّا مفاده "أن يقف خطيب أو واعظ بين يدي خليفة أو أمير فيُلقي عظته، وصارت في العصر العباسي تعني محاضرة أو حديثا، سواء قام المتحدث أو قعد." (الشريسي: 5) هذا، وأول كتاب وضع في المقامات "هو مقامات بديع الزمان الهمذاني وكان قصده أن يلقي درسا في علوم اللغة أو الأدب بأسلوب مشوق يشوبه المرح". (شوقي: 247) وإلى هذا يشير شوقي ضيف إذ يقول: "ثم توسع العرب في معنى الكلمة فأصبحوا يطلقونها على خطبهم وأحاديثهم التي يقولونها في مجالسهم،...".(الشريسي: 5)

المقامات في الأدب النيجيري العربي

إن قراءة المقامات عادةٌ قديمة منتشرة بين دارسي اللغة العربية في نيجيريا وقلّما تجد مدرسة وما في معناها من الحلقات العلمية إلّا ويروج فيها تعلّم المقامات، لأنّ تعلّمها يشكل النضوج في مراحل التعلّم والاستيعاب والإتقان، فهما مفخر للمتعلّم ومعلّمه، كما أنّ المقدرة على توضيحها معيار مهارة الدارس ومدرّسه. هذا، وإن كان بديع الزمان الرائد الأول لفنّ المقامات إلّا أنّ الحريري ومقاماته أشهر لدى النيجيريين الذين يُقبِلون على دراستها بنهم. وفي أوساط قبيلة اليوربا تعتبر إجادة فهم مقامات الحريري قمةً في التحصيل العلمي.

تجاوز تمسكُ النيجيريّين بدراسة المقامات حدّ التفسير وتوضيح مضامينها خصوصا بين اليوربويّين الذين ثملوا بالفن لدرجة أدّت ببعض شيوخهم إلى العكوف في تأليفها على منوال ما وصلهم من رجالها، لاسيما القاسم الحريري. ويثبت التاريخ أنّ أول من تصدى لتأليف المقامات بين قبيلة يوربا هو مسعود بن عبد الغني أَدَيْبَايَو (ت: 2023) الإمام الجامع لمدينة أَوْيَوْ الذي وضع مقامة واحدة أسماها بالمقامة الأويوويّة، وتبعه محمد الأول بن عبد السلام الملقب بصاحب القرآن بمقاماته التي سمّاها مقامات الإلوري. وأتى بعدهما أحمد بن يوسف بمقامته التي سمّاها مقامات بن يوسف، واقتفى أثرهم عبد الباري أَدَيْتُنْجِي الإِبَادَنِيّ بمقاماته المسماة "كسوة العاري في مقامات عبد الباري". ويشتمل تأليف كل من أحمد بن يوسف وعبد الباري على ثلاثين مقامة حين تتضمن مقامات الإلوري على خمسين مقامة. وجميع المقامات وليدة المدّة بين 2003م و2017م إلّا المقامة الأيووية التي رأت نور الحياة عام 1999م. (موديبو أولا: 41-42).

فاعلية المقامات كفنّ أدبيّ لدي يوربا

لم يعهد دارسو اللغة العربية في نيجيريا- وخاصة بين قبيلة يوربا- الكتابة الإبداعية سوى ما يصادفون في القرآن الكريم والأحاديث النبويّة لكنّهم يجدون متعة أدبيّة كبيرة في المقامات. ولعلّ السرّ في ذلك يرجع إلى عادتهم الشاحنة بالفولكلور التي سماها العقاد بالمرددات الشعبيّة، (العقاد: 29) أو المأثورات الشعبيّة كما ترجمها معجم المصطلحات في اللغة والأدب. (مجدي: 474) كانوا يقصّون المرددات التي تتضمن دروسا وعبرا وحكما. وكيفية سردها لديهم أن الصغار الذين لم تتجاوز أعمارهم اثني عشر عاما يلتفون-في أغلب الأحايين- حول كبير مسنٍّ ليلا في فناء يتلقون منه أقاصيص قصارا وغالبا ما يكون ذلك وقت انتظارهم العَشاء. ومثل هذا وغيره من المأثورات الشعبيّة هو ما جمعه الأستاذ إسحاق أَوْغُنْبِيِي في كتابٍ سماه "القصص الشعبية عن السلحفاة عند اليورباويين سكان غرب نيجيريا".

ومن هذا المنطلق وجدت المقامات أرضا خصبة للنشأة والنماء لدى يوربا، وقد شجعتهم الظروف الموصوفة على الإقبال على كتابة المقامات، إضافة إلى ذلك أنّ قصر المقامات يروق أغلبية دارسي الأدب العربي لاسيّما الذين لم يظفروا بالتعلّم النظامي. ويُستنتج من كلّ هذا أنّ المقامات هي النواة الأساسية لعمليّة الابتكار الأدبي القصصي لدى الكتاب بين مسلمي بلاد يوربا، لأنّها تماثل تراثهم الشعبيّ.

نبذة عن الكاتب

هو محمد الأول بن عبد السلام، وقد اشتهر بلقبه (صاحب القرآن) وهو لقب أطلقه الناس على جدّه لحسن تلاوته للقرآن وملازمته له، وباللقب اشتهر أبو الكاتب كما اتخذه غيره من أبناء أبيه لقبا لهم. ولد بأَوْكَيْ إِنَا (Òkè-Ìta) في إِنَا-أَجِيَا (Ìta-Àjía) غَمْبَرِي (Gàmbàrí) إلورن عاصمة ولاية كوارا نيجيريا. كان مولده في حوالي عام 1973م. نشأ نشأة إسلامية محضة بين أسرته وترعرع وتربّى في كنف ورعاية والديه. بدأ التعلّم الإسلامي مبكرا على عادة الإلوريّين وتلقى القرآن سردا مع بعض مبادئ العلوم الإسلامية والعربية في كتّاب والده الشيخ عبد السلام. والجدير بالذكر أنّ محمد الأول لم يمر بأيّ مدرسة نظامية في حين التحصيل العلمي، بل كان يتنقل من معلم إلى آخر على عادة المتعلّمين في القديم، وكان يلازم معلما حتى إذا حقق رغبته عنده غادره إلى غيره، وقد ساعده على هذا وقادة قريحته وقوة عزمه. وقد ساقته

تنقلاته إلى كَدُونَا في شمال نيجيريا وزَارِيا حيث التقى بشيخ سودانيّ اسمه الدكتور إبراهيم مرتضى، ولهذا الشيخ تأثير إيجابي ملموس في صاحب القرآن. ورجع بعد سيره الطويل إلى مسقط رأسه في أواخر التسعينات من القرن الماضي وأسّس بها مدرسة سمّاها مدرسة التعليم العربي والإسلامي وأصبحت المدرسة قبلة طلاب وعشاق اللغة العربية والدراسات الإسلامية.(أَوْنِكَنْهُنْ: 13-19).

عرض للمقامتين المختارتين

إنّ عرض المقامين عرضا كاملا، بل ينحصر في الجانب النثري الذي تفتتح به كل مقامة، وذلك لأن اهتمام هذا البحث يدور حول القصة وكيفية استخدامها مدخلا إلى الفكرة التي يود الباحث بثّها. هذا من جانبٍ، ومن جانب آخر نبه شعيب أَوْلوْغَيْلَيْ في تقديمه للمقامات إلى "... أن الأنظار... توجهت إلى الجانب الشعري بالكثرة، حتى أن القارئ في الأدب العربي يظن أن الأدب مقصورٌ على الشعر فقط إلا أن هذه المقامات تثبتُ في الأذهان أن النثرَ يتمتعُ بالدرجة التي كان عليها الشعرُ من المتعة والعذوبة الأدبية". (عبد السلام: 9).

المقامة الخامسة الكَدُونِية

حدثنا جبريل بن خالد قال وعرَ بي وطني في بلدي، حتى تطيّرت بنفسي في خلدي واظبت فنّ البلاغة والأدب، ولم أجد به قضاء الأرب، وجعلت أقطع فراسخ الطريق، بلا حاجة إلى الرفيق، فساقني القدم إلى أن أَكْدَنْتُ، لعلي أثرى بها فأكديت، وما لبست فيها أياما، حتى قوّضت للعودة خياما، لحادثة وقعت بها الهرج، وعز منها المخرج، يحترب في النهار قوم، ويطير في الليل نوم، يضرب على الأعناق، مع كلمة لا إله إلا الله بالأشداق، يراقون الدماء، ولا يراقبون الذماء، يقتل فيها المسلم مسلما، كي يعدّ ماله مغنما، ويلقى الكافر الفاجر، ولا يستطيع أن يشاجر. فلما هدأت الحرب، وهاجت الكرب، هممت الرجوع، بعدما اتخذت فيها الربوع، وكنت بشدة الكآبة، على فاقة عند الإيابة، فألفيت أبا اللبيب كأنّه من الحزن في اللهيب. فقلت له ما عراك كما أراك فما بالك في بالك، فقال هودج الحمام في الفناء، وسحى الهمام إلى الفناء...

فصرمَ شعرهُ، حين بلّت الدّموعُ نخرهُ، فقالَ هذَا يومُ الرّثاءِ، لمن عابرَ إلَى الفنَاءِ، لا يومُ الإمتاحِ لمنْ ناول طرفَ الإناءِ، ثمَّ إلَى مكَانٍ استرْجَعَ...

فقلتُ لَا تُهْلِكْ نفسَكَ، وإنَّ القبرَ فَوقَ الْوَصفِ، فكيفَ أنتَ إنْ وَافاكَ الأَجلُ، هَلْ يَعْصِمكَ منهُ أرضٌ أوْ جبلٌ، فقالَ ما لِي قدرة عليهِ، ولكنْ هذَا ما أوليهِ،...

ثمَّ ولَّاني قذالهُ، ومنعني وصالهُ، فعدتُ بعنسِي إلَى مسقطِ رأسِي. (عبد السلام: 42-45).

المقامة العاشرة السَّنْفَرِيّة

حدثنا جبريل بن خالد قال أسرَى بي مأربٌ في ليلة داجيةٍ، على ناقةٍ ناجيةٍ، تسابقُ مباري الخيل، فبلغت سنفرَ بعد ثلثِ اللَّيل، ورأيتُ فيهَا أجناسًا، فاتّخذتُ منْ بجدتهَا خليلًا، ليكون لي في كلِّ أمورٍ دليلاً، وإن كلمتهُ يحاورني، وعلَى المعاشِ يشاورني، فقال يا أنيسِي، وإن لم تكن من جنسِي، هل لك مع العلم حرفةٌ، أوْ في المحيا وظيفةٌ،من عمل داؤد أو صناعةِ موسى، لتقتنِي بها عند الشدائد والبُؤسَى، قلت ما لي غيرَ حرفة المتّقين، الذين تميَّزُوا بين الرَّيب واليقين، يعني اتخذُ التعليمَ مهنةً، ولو يكادُ يصبحُ معانةً، وإنْ نلتُ منهَا طيبَ الغذاءِ، لا أحتاجُ إلَى حسنِ اللباس والحذاءِ، فعلَى اللهِ أتّكلُ، ومذلتهُ أحتملُ، ثمَّ قالَ لي أينَ أنتَ مِنْ حسنِ الصِّناعة، تكتفِي بهَا منَ المعارضةِ للدناءةِ، فقلتُ ما هِيَ؟ قَالَ حرفةُ الأنبياءِ والرُّسلِ، قلتُ أتعنِي بيعَ الرّطبِ والذبلِ، قالَ رعيّةُ الأغنامِ والأبقارِ، والاعتناءُ بهَا منَ الغلمة الأبكارِ، وأخذَ بالقسمِ الصفَا والمروةَ، أنَّ فِي البقرةِ الكوراءِ ثروةً، أمَّا القرنُ والعظمُ تتخذانِ ذرورًا، وجملتهَا تجارةٌ لنْ تبورا أمَّا الجمُّ بعد أن سيلَ يجمدُ، وأمّا اللّحمُ والشحمُ حلالٌ بالأكلِ بمقتضِي الشرعِ والعقلِ، وبالروثِ يحيَ الأرضُ المقحطةُ، ولأذاهَا مميطة، وإلَى البول يحتلجُ، لبعضِ أمراضٍ إعلاجٌ، والجلدُ بعد أنْ دبغَ، وبالنارِ طبخَ، مضروسٌ بنواجذٍ قبلَ أنْ ينيطَ بمنافذٍ، واللَّبنُ إنْ لمْ يبكأْ يحلبُ، ومن جنسهَا يحسبُ، كورهَا متحملٌ، وشعرهَا مستعملٌ، قدْ بتالُ منهَا الغنَى والجدَى، ما منْ عضوٍ نتحَ سدَى، قالَ جبريلُ بن خالدِ فلمَّا عددتُ عليه البنانَ، وقدْ أكثرَ فيهَا البيانَ، فانحصر فيهَا منَ الإطالةِ خسيةَ النسيانِ والملالةِ...

قاق جبريل بن خالد منذُ ما أنَا معكَ في جميعِ الأبوابِ تتكلَّمُ بالحكمة والصوابِ، ولكنْ حططتَ في هوّةِ الغيِّ، بهذا الرأيِ، إنّما الحر العفافُ، من يرضاهُ العيشُ الكفافُ، ومنذُ مَا تنظمُ أتنوَّمُ، ليسَ التعليم كما تتوهّم، إنّ المصابرة على تعليم الصبيانِ، تبيحُ مغفرة الرّحمنِ، ورأيتكَ حلا بهذا البلدِ، فاتخذتك خلا مبين الرّشد، بيد أنك ضلٌّ مغترٌّ حين تشعر تفترُّ، وأفاركك بهذا السببِ ولا أرافقكَ في هذا الشعبِ، فودعته بلا التحريبِ، قبلَ أنْ أعلمَ أنهُ أبو اللبيب. (عبد السلام: 65-69).

دراسة أدبيّة للمقامتين المختارتين

تبتدئ الدراسة بالنظر في مضمون المقامتين بغرض تناول القضايا الاجتماعية التي طرقتاها وهذا مهمّ جدّا لأنّ اجتماعية الأعمال الإبداعيّة أمر واقعيّ، فإنّ الكتّاب، لاسيما الأدباء المبدعون، إنما يستوحون خواطرهم من مجتمعهم ولا فرق في أن يكون ذلك عن وعي أم عن غير وعي. وحينما يمسكون أقلامهم ليكتبوا إنما يودعون أفكارهم ليتّصل بهم القراء ويسبحون معهم في أفلاكهم الأدبيّة، وحتى الذين يبحثون في الأعمال الإبداعيّة عن القيم الذاتيّة والفنيّة ويفضّلون إتقان التصوير وروعة التعبير لا يجنّبون الأدب عن القيم الاجتماعيّة. ومن هذا القبيل كون المقامات فنّا أدبيا، كما أشار إلى ذلك شوقي ضيف قائلا: "وحتى المقامات التي كُتبت لتعليم النشأة أساليب الكتابة المنمّقة أودعها أصحابها الحياة التي عاصرتهم بصلاحها وفسادها وحكّامها وقضاتها وأسواقها ومساجدها ووعّاظها وأصحاب اللهو والمجون". (شوقي: (ب) 195) وعلى هذا المبدإ تنظر المقالة في القضايا الآتية:

الاغتراب بعد التحصيل

العادة السائدة بين دارسي اللغة العربيّة والدّراسات الإسلاميّة في أوساط يوربا هي أن يتوجه من حصّل بينهم مستوى علميا معترفا به إلى أرض غريبة طلبا للرزق والرفعة. وهذا ما حدث لراوي هذه المقامة إذ توجّه إلى كَدُونَا كما ورد في المقامة الخامسة حيث يقول: " وعرَ بي وطني في بلدي، حتى تطيّرت بنفسي في خلدي واظبت فنّ البلاغة والأدب، ولم أجد به قضاء الأرب، وجعلت أقطع فراسخ الطريق، بلا حاجة إلى الرفيق، فساقني القدم إلى أن أَكْدَنْتُ، لعلي أثرى بها فأكديت..." وهذا من خصوصيّات المتعلّمين بعد التحصيل، وبهذا الصنيع يسجّل شيئا من عادة قومه العلماء.

حادثة الفتنة بمدينة كَدُونَا

من أشد الفتن خطورة في نيجيريا الصراع الديني الذي يحدث لسبب تافه في أغلبية الأوقات، ومن المدن المشهورة بالفتن من هذا النوع مدينة كَدُونَا في شمال نيجيريا التي توجّه إليها الكاتب. ويبدو أنّ التي يشير إليها في مقامته "الكدونية" هذه هي التي وقعت سنة 2000م والسبب الذي أضرمها هو الإعلان الرسمي بتبني الشريعة الإسلامية كالنظام القضائي في الولاية من قِبَلِ الحكومة.(Shiklam). فلأنّ الأغلبية الساحقة من سكان الولاية مسلمون رأت الحكومة أن الروح الديموقراطية تسمح لهم بتطبيق الشريعة الإسلاميّة مع مراعاة حقوق غير المسلمين في الولاية. أسفرت هذه المبادرة عن فتنة كبرى أثارتها الأقلية المسيحية من مواطني الولاية، وما أن بدأت الفتنة حتى استغلها المجرمون لارتكاب أشنع الجرائم من القتل والنهب وحرق المباني، وإلى ذلك يشير الراوي إذ قال: "قوّضت للعودة خياما، لحادثة وقعت بها الهرج". وقد حمي وطيس الاشتباكات بين مؤيدي الشريعة والمعارضين واستغل والمتطرفين الموقف لارتكاب أشنع جريمة، وقد بلغ بهم التطرف حدّ التهليل (الله أكبر) بأرفع أصوات عند ذبح الناس كالدواب ولا يبالون، أهم مسلمون أم غير مسلمين، وإلى هذا يشير إذ قال: " يحترب في النهار قوم، ويطير في الليل نوم، يضرب على الأعناق، مع كلمة لا إله إلا الله بالأشداق، يراقون الدماء، ولا يراقبون الذماء، يقتل فيها المسلم مسلما، كي يعدّ ماله مغنما". شاهد الكاتب الفتنة الكبرى وأحزنته كما أفزعته فأفرد لها مقامة مستقلة أودعها الحادثة المخيفة، وهذا الصنيع شاهد على مكانة الأدب كالوعاء الحقيقي لتاريخ قومٍ.

وكل ما سبق من النماذج مما تتضمنه المقامة الخامسة، وفي السطور التالية بعض ما تتضمنه المقامة العاشرة من قضايا اجتماعية. إنّها (المقامة السنفرية) مقامة توجيهيّة كرس فيها الكاتب العناية على إرشاد وتوجيه المتعلمين توجيها حسنا يساعدهم على المعيشة الإيجابية المثمرة.

التزوّد بطرق حلٍّ للمعيشة

من الحقائق التي لا يعتريها ريب أنّ من أكبر التحديّات أمام علماء العربية والإسلاميات في ديار نيجيريا الحصول على الطريقة المأمونة لكسب العيش الحلال للحفاظ على الكرامة اللائقة بهم، إلا أن ذلك من الصعوبة بمكان لأنّ النظام الإداري لا يراهم أهلا للتوظيف الحكومي ولا يوفر لهم المجتمع منفذا للكسب الحلال كما لا يتعلمون حِرَفا أخرى يسدون بها رمقهم، ونتيجة لهذا المأزق الاقتصادي يصبح معظم المتخصصين في العلوم العربية عالة على المجتمع متطفلين على موائد الأثرياء، ويحصلون على ما لا يسمن ولا يغني. فطن كاتب المقامة إلى حقيقة الظروف الاقتصادية المحيطة بالمتعلمين من هذا النوع وأودع هذه المقامة إرشادا وتوجيها قد يخرجهم من الضيق المحدق بهم، وينبههم على ضرورة التزود التام لكسب الرزق الحلال حيث يقول: "هل لك مع العلم حرفة، أو في المحيا وظيفة، من عمل داؤد أو صناعة موسى، لتقتني بها عند الشدائد والبؤسى..." فأجاب المسؤول بأنّه لا يحسن أيًّا "غير حرفة المتّقين، الذين تميّزوا بينَ الرَّيب واليقين، يعني أتّخذُ التعليم مهنةً." وتلك الإجابة هي عين ما يعانيه الأغلبية من علماء اللغة العربية والإسلاميات. ومن الأسباب التي تحدو بهم إلى ذلك عدم توجيههم أثناء تعلّمهم توجيها يساعدهم على التفكير الإيجابي خارج مهنة التّعليم. وللتخلص من هذا المأزق تقترح هذه المقامة حلا جذريا قائلة: "أين أنت من حسن الصناعة، تكتفي بها من المعارضة للدناءة، فقلت ما هي؟ قال حرفة الأنبياء والرسل، قلت أتعني بيع الرّطب والذبل، قال رعيّة الأغنام والأبقار، والاعتناء بها من الغلمة الأبكار..."

النص السابق من المقامة السنفرية ينادي الدارسين إلى الاعتماد على الكدّ والجهد في سبيل التحصيل الاقتصادي بدون الاتّكال على الأثرياء والتحايل على الناس باسم الدّين لغرض سلبهم أموالهم، فأولى لهم أن يكتسبوا ويستغلّوا الفرص المتاحة في الصناعة يستدرّون بها دخلًا محترما يصونون به كرامتهم. ويكونون بهذا نماذج حسنة للمتقدمين من العلماء، كما أشار إليه سيّد قطب ناقلا من كتاب للأستاذ عبد الحليم الجندي بعنوان "أبو حنيفة بطل الحرية والتسامح في الإسلام" إذ يقول:

كان أبو حنيفة خزازًا، كما كان كثير من رجالات الفقه بعده تجارًا وصناعًا. هذا الإمام الخصاف أحمد بن عمر بن مهير، أبوه تلميذ محمد والحسن صاحبي أبي حنيفة؛ وكان الخصاف يؤلف للمهتدي بالله كتاب الخراج؛ ويصنف كتبه العظيمة في الفقه في حين يعيش من خصف النعال. وهذا الكرابيسي يبيع الكرابيس أو الثياب الخام، وهذا القفال يخرج يده فإذا على ظهر كفه آثار، فيقول: هذا من أثر عملي في الابتداء (صناعة القفال)؛ وهذا بن قطلوبغا يعمل خياطًا. والجصاص شيخ زمانه ينتسب إلى العمل في الجص. ثم هذا الصفّار (كان أبوه يبيع الأواني الصفرية أي النحاسية) والصيدلاني (من بيع العطر) والحلواني (كان أبوه يبيع الحلوى) والدقاق والصابوني والنعالي والبقالي والقدوري وغيرهم كثيرون....(قطب 183)

والمقامة السنفرية مليئة بمثل ذلك التوجيه الذي عرضه سيّد قطب على قرائه بالنص المنقول، فحين يوجّه الكاتب النيجيري طلبة الدراسات العربية والإسلامية هذا التوجيه، من خلال فنّ المقامات، فإنّها لدعوة إيجابية نحو الاستقلال الاقتصادي والانحلال من صفوف العالة على أموال الآخرين والتطفل على موائد الأثرياء ونبذ الكرامة.

وتنتقل المقالة إلى النظر في إطار المقامات بغرض تناول خصوصيات الفنّ ليتّضح مدى نجاح صاحب المقامات في تطبيق مبادئ الفنّ. وحسب تعريف فنّ المقامة الوارد في بداية المقالة إنّ لها أركانا أربعة هي:

الراوي: إنه عنصر أساسي في فنّ المقامة ويعني شخصا يسرد الحكايات التي تحيط بجميع حركات البطل في المقامة. تحتوي كل مقامة على حادثة معيّنة تمس بطلها ولا يقربنا إليها إلا الراوي، وهذا من طبيعة الفنّ من بديع الزمان إلى اليوم. والراوي لدى بديع الزمان هو عيسى بن هشام، ولدى الحريري الحارث بن همام، وهو سهل بن عباد عند اليازجي، أما في مقامات الإلوري فهو جبريل بن خالد.

البطل: هو محور الحكاية في كل مقامة أو ما يسمى "نجم القصة" وحوله تدور النشاطات المقامية، ومنه تنبع الحِكَم والعظة والإرشاد أو أيّ ملحة أدبيّة مما يكوّن الفكرة المقصودة في كل مقامة، ومعنى هذا أنه الشخصية البارزة في كلّ مقامة. البطل في مقامات بديع الزمان هو أبو الفتح الإسكندري، وفي مقامات الحريري أبو زيد السروجيّ، وفي مجمع البحرين لليازجي ميمون بن خزام، وفي مقامات الإلوري أبو اللبيب.

القصة: المقامة فنّ قصصي يعتمد على سرد الراوي ليتابع القارئ حوادث كل مقامة ويفهم مضامينها من الأهداف والفكرة، ومن هنا تأتي أهمية إتقان الكاتب لأسلوب السرد وقدرته على التعبير الرائع الجذاب الذي يشوّق القراء إلى متابعة جميع مقاماته من البداية إلى النهاية.

الأسلوب: ويراد به هنا أسلوب الفنّ القصصي لا أسلوب الكاتب الشخصي، وذلك لأنّ للمقامة أسلوبها الخاص. وأبرز ما تتميز به المقامة هو السجع، واستعمال المزخرفات اللفظية والمعنوية، من بديع وختم كل مقامة بملح أدبي أو وعظ ديني. ويتبيّن من هذا أنّ الحرية التي تُمنح لكتاب القصص الآخرين لا تمنح لأصحاب المقامات، لأنّ عليهم الالتزام بالسجع، وجزالة الألفاظ، وطريقة عرض خاصة، وإلى جميع ما تقدّم يشير حسن بن جابر المدري الفيفي في معرض حديثه عن المقامة: "هي حكاية قصيرة، تشتمل كل واحدة منها على حادثة لبطل المقامة، يرويها عنه راوٍ معيّن تنتهي بمواعظ أو طرف أو عِبر". (الفيفي...). ومن خلال العرض السابق يتّضح أن مقامات الإلوري تستوفي كافة العناصر الفنيّة التي تعتمد عليها كتابة المقامة من حيث الإطار والمضمون.

ملحوظات:

مهما بلغت جودة عمل إبداعي فإنه لا يخلو من بعض الهنات والمآخذ لأن وظيفة النقد في العمل الإبداعي "... تتلخص في تقويم العمل الأدبي من الناحية الفنيّة، وبيان قيمته الموضوعية، وقيمه التعبيرية والشعورية، وتعيين مكانه خط سير الأدب، وتحديد ما أضافه إلى التراث الأدبي في لغته، وفي العالم الأدبي كله، وقيام مدى تأثره بالمحيط، وتأثيره فيه،...".(قطب: (ب) 7) وعلى هذا الأساس، إنما نشير إلى بعض هذه الملحوظات تقديرا لجهد صاحب المقامات، ولكي يستدركها حين يراجع العمل، لا قصدا إلى النيل من العمل أو الحطّ من قدره.

التركيز على الراوي أكثر من البطل

من فنيّة المقامات أن يقتصر دور الراوي على سرد الحكاية في حين تقع الحركة والأنشطة من قِبَلِ البطل، وهذا ما يوجد في المقامات المشهورة السالفة الذكر، ولكنّ النص الذي تتعرض هذه المقالة لمناقشته يعطي أكبر دور لجبريل بن خالد في حين يأتي البطل أبو اللبيب في خاتمة المقامة لمجرد عرض الدروس أو العبر المستفادة من السرد.

برودة النص من حركة البطل

المتوقع في المقامات من وجهة الفنّ هو أن يكون البطل منشئ الحادثة الرئيسة، ويسترعي انتباه بقية الأشخاص إلى نفسه، لا أن يحكي الراوي الحادثة حكاية جرداء. ويُجلي النظر في مقامات الهمذاني والحريري ومجمع البحرين هذا الملحوظ بكلّ وضوح إذ نرى أبا الفتح الإسكندري في المقامة القريضية يتصدى لمناقشة الأدباء الذين لم تسبق لهم معرفته (أبي الفضل: 8) وتحدّاهم في موضوع المناقشة حتى اكتشفوا قيمته الأدبية، والأمر كذلك لدى الحريري في مقامته الصنعانية حيث رأينا أبا زيد السروجي يلفت الأنظار إلى شخصيته بوعظه المثير في نادي الأدباء. (الشريسي: 4). وإذا أتينا إلى اليازجي في مقاماته مجمع البحرين رأينا كيف احتال ميمون بن خزام على مضيفيه الذين أظهروا له العطف وأجزلوا عليه العطاء لما استعطفهم في تمويل زفاف ابنه في المقامة الثانية الحجازية،(اليازجي: 21-25). إنّ التعرف على البطل في المقامات المشار إليها كان عن طريق أنشطته وليس عن طريق إيراد للحادثة من عند نفسه، كما ورد في مقامات الإلوري.

فقدان الاحتيال في التخلص من مآزق

إنّ أهم ما يميّز المقامة عن غيرها من الفنون الأدبيّة أن بطلها دائما يجد نفسه إزاء مأزق من مآزق الحياة، ويلجأ إلى الاحتيال والخداع كي ينجو من المأزق، وقد أوضح الفاخوري جميع خصوصيات الفنّ في تعريفه-كما سبق أن أوردناها- حيث قال: "وبطلها رجل أحكم التحيل وقصر همه على تحصيل الطفيف من الرزق، فكانت أخباره كلها تدور حول الكدية والخداع، والاحتيال والتمويه...وإظهار البراعة في التخلص من مآزق الحياة عن طرق ملتوية...".(الفاخوري: 731). إنّ النص المختار لم يستوف الصفات التي وضعها الفاخوري، إذ الذي يترآى للقراء فيه مجرد السرد العادي من بداية المقامتين إلى نهايتهما. ليس هناك ذلك التنكر والتمويه الذي يُشوّق القراء إلى متابعة السرد بنهم، كما يُفتقَد التحيّل في طريق التخلص بعد الوقوع في مأزق، وهذا طبعا ينقص من تكييف نصوص المقامتين من حيث التصوير والفنيّة.

النتائج والمقترحات

تنتهي المقالة إلى بعض النتائج أهمها ما يلي:

أ- أنّ فنّ المقامات في الأدب العربي، وإن كان قد أصبح شبه منبوذ، لم تزل قيمته معترفا بها في الساحة الأدبية، لما يقوم به من الحفاظ على التراث العربي من القديم إلى الآن.

ب– أنّ من عادة قبيلة يوربا سرد الأقاصيص لصغارهم تحت ضوء القمر تسلية لهم في أثناء انتظارهم العشاء، وبهذا صادفت المقامات فيهم أرضا خصبة يستغلونها لتنشئة الصغار تنشئة أخلاقية.

ج– أنّ مقامات الإلوري، كغيرها من المقامات، سجلّت في طيّاتها حوادث اجتماعية تساعد على فهم الوقائع التاريخية في دولة نيجيريا عامة، وفي قبيلة يوربا خاصة.

د– أنّ فنّ المقامات تصلح لتطوير الأعمال الإبداعية كغيره من الفنون الأدبية وتقرّب إلى القراء الشعور الذاتي مستخدما جميع الأدوات التصويرية بطريقة جذابة شيّقة.

وبناءً على هذا، تقترح هذه الدراسة أن يتزود دارسو العربية الراغبون في فن المقامات بالمؤهلات الأدبية المناسبة وأن يكونوا ملمّين بجميع متطلباته مع الوعي التام بأنّ العمل الإبداعي وليد المجتمع ووعاء العادات البيئية، وبالتّالي يجعل الكتّاب نصب أعينهم أنّهم يصوّرون مجتمعهم عندما يعرضون عواطفهم، وأن يحكموا العناصر الفنيّة المناسبة لأعمالهم. وذلك لأن ما يسردون يفيد الجيل الحاضر والذين يأتون بعدهم، ولذا يجب أن يكونوا ملتزمين بالشروط الموضوعة للنتاج الإبداعي.

الخاتمة:

فنّ المقامات قديم في الأدب العربي وقد نشأ كفنّ ترفيهي حيث يقصّ الراوي قصته على مسمع جماعة في مجالسهم المختلفة بغرض إظهار المقدرة اللغوية وإبراز الملح الأدبيّ، وهي شبيهة بالقصص الصغيرة في الأدب المعاصر من حيث الحجم والمضمون. وقد أقبل دارسو العربية في نيجيريا، لاسيما اليوربويون منهم، على إحياء الفنّ في أوساطهم، وهذا شاهد على أنّ الفن يستردّ نشاطاته ويؤدي دورا اجتماعيا مهما بينهم. ومقامات الإلوري المستخلص منها النموذجين المدروسين مبادرة طيبة ومحاولة قيّمة جادت بها قريحة الشيخ محمد الأول صاحب القرآن، ومكان هذا الكاتب وعمله في سير الأدب العربي ألمعيّ في الميدان وإن كان قد سبقه في الميدان الإمامُ العام لمدينة أَوْيَوْ. ومما يميّزه عن غيره أنّه لم يتعلّم تعلّما نظاميا بل اكتسب ما اكتسبه بالمواظبة والتفرغ للتعلم على النظام التقليدي الذي يُلزِم الطالب التنقل بين العلماء لتعلّم ما يتخصص فيه كل منهم. والنظر الفاحص لمقامات الإلوري يبدي بكل جلاء فاعلية المقامات كفنّ قصصي بين يوربا في نيجيريا. هذا، "وإن كان هذا النمط من التأليف قد تجاوزه الزمان وطُويت صفحته بظهور القصة...إلا أنه يبقى محطة من محطات تطور النثر العربي..." (اليازجي: 14). وخصوصا في الأدب النيجيري العربي.

المصادر والمراجع:

John Shiklam, The Unending Cycle of Violence in Kaduna, thisdaylive.com, retrieved 24/08/2022, 10:26pm

إبراهيم موديبوأولا جنيد، فن المقامات في بلاد يوربا: دراسة تحليلية، بحث مقدم تكميلا لمتطلبات الحصول على درجة الدكتوراه، قسم العربية والفرنسية، جامعة ولاية كوارا نيجيريا، 2021م،

أبي الفضل أحمد بن الحسين بن يحي، **مقامات بديع الزمان الهمذاني**، بيروت-لبنان، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، 2003م.

أَوْنِكَنْهُنْ، عبد الواحد عبد الرؤوف، **البنية الإيقاعية في القصائد الواردة في مقامات الإلوري لمحمد الأول عبد السلام صاحب القرآن "دراسة إحصائية تحليلية"** بحث مقدّم إلى قسم العربية والفرنسية للحصول على درجة الدكتوراه عام 2021م.

الشريسي، **أبو العباس أحمد بن المؤمن القيسي**، المرجع السابق، ص: 5

الشريسي، أبو العباس أحمد بن المؤمن القيسي، **شرح مقامات الحريري**، بيروت لبنان، دار الفكر، د.ط.، 2002م.

الشريسي، أبي العباس أحمد بن المؤمن القيسي، **شرح مقامات الحريري**، بيروت لبنان، دار الفكر، 2002م، المجلد الأول.

ضيف، شوقي، **النثر ومذاهبه**، مصر، دار المعارف، الطبعة السادسة، 2015.

ضيف، شوقي، **في النقد الأدبي**، القاهرة، دار المعارف، الطبعة التاسعة، د.ت.

عبد السلام، محمد الأول، **مقامات الإلوري**، كنو، نيجيريا، دار الأمة، الطبعة الخامسة 2011م.

العقاد، عباس محمود، **خواطر في الفنِّ والقصة**، بيروت-لبنان، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، 1973م.

الفاخوري، حنّا، **تاريخ الأدب العربي**، بيروت–لبنان، المكتبة البوليسية، طبعة ثامنة، د.ت.

الفيفي، حسن بن جابر المدري ، faculty.ksu.edu.sa Retrieved 28/08/2022

قطب، سيد ، **النقد الأدبي أصوله ومناهجه**، القاهرة، دار الشروق، الطبعة العاشرة، 2013م.

قطب، سيد، **العدالة الاجتماعية في الإسلام**، بيروت، الطبعة السابعة، 1967م.

مجدي وهبه وكامل المهندس، **معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب**، بيروت-لبنان، مكتبة لبنان، الطبعة الثانية، 1984.

مجدي، وهبة وكامل، المهندس، **معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب**، بيروت، الطبعة الثانية، مكتبة لبنان، 1984م.

اليازجي، الشيخ ناصيف، **مجمع البحرين**، دار نظير عبود، 1993م.

In This Issue

Editorial
Article

A Stylistic Analysis of Selected Episodes of the Nigerian Nollywood Movie, Jenifa's Diary
Moshood Zakariyah

Contextual Beliefs in Online Political Cartoons on President Buhari
Oluwatomi Adeoti

Minority Representation of the Nigeria Civil War: A New Historicist Reading of Elechi Amadi's Sunset at Biafra and Saro-Wiwa's Sozaboy
Saeedat Bolajoko Aliyu and Roseline Oladipo

Mediating COVID-19 Discourse as Mechanism for Institutionalising Culture of Fear: A Review
Ahmed Tanimu Jibril and Yusuf Muhammad Jika

Historical Works of Al-Iluriy: An Evaluation
Olayimika Wasiu Kewulere

Addressing Moral Decadence among Nigerian Youths through the Inspirational Biography of Prophet Muhammad (SAW)
AbdulHameed Badmas Yusuf and Muhammad Aliu Gambari

Yoruba Indigenous Religion and its Implications for the Restructuring of Nigeria
Ojelabi Isaac Kehinde and Sulaimon Fatai

آراء ابن عادل الدمشقي في خلق آدم عليه السلام والجن
حسين أحمد علي الساكت

مقامات الإلوري والقضايا الاجتماعيّة: دراسة أدبيّة
جامع محمد يونس